أشعيا ٣٥
ويكونُ على رؤوسِهم فرحٌ أبديٌّ

الأب أيوب شهوان

مقدمة

أش ٣٥ هو نشيد العودة من المنفى، ويمكن مقاربته من أشعيا الثاني.

يُستهَلّ نص أش ٣٥ بفعلين ينتميان إلى الزمن المسيحاني، هما "فرح وابتهج"، اللذين لا يتحقّقان إلاّ عندما يأتي المسيح المنتَظَر.

يستعذب الأنبياء، وهم الأدباء والشعراء بامتياز، اللجوء إلى الصور الرمزية المستلّة خاصة من الطبيعة ليعبّروا عن أفكارهم، وينقلوا بها أقوالهم النبويّة، مبتعدين، كما العادة، عن التجريد في كتاباتهم، وذلك تقريبًا لنبوءاتهم من مفاهيم الناس. هذا ما يفسّر استعمال أشعيا في هذا النص، مثلاً لصُوَر "البريّة والقفر والبادية"، التي يشخّصها، فينسب إليها أفعال "الفرح"، والابتهاج"، و"الإزهار"، وكأني بما كان عقيمًا قد أضحى يتفجّر حياةً وخصبًا. ثمّ يرتقي في وصفه إلى أسمى ما يمكن على وجه الأرض، ألا وهو "لبنان"، ومن هناك نزولاً إلى "الكرمل" فـ"الشارون"، وذلك بهدف إبراز شمولية الوضع الجديد.

وذروة الفرح والبهجة والترنيم المعبّر عنها بالإزهار الكثير، وبالكلام على "مجد لبنان" و"بهاء الكرمل والشارون"، هي بالنتيجة أنّ المؤمنين "ينظرون مجد الرب وبهاءه" (٣٥: ٢).

١ – موقع النص

من أش ٣٤، حيث كانت دينونة الله قد حلّت بأهل أدوم، المملكة الصغيرة التي كانت قائمةً على مقربة من البحر الميت، والتي كانت بينها وبين بني إسرائيل عداوة تقليدية ترقى إلى زمن الخروج (عد ٢٠: ١٤–٢١)[١]، يصل القارئُ إلى أش ٣٥، الذي يضجّ بـ"الابتهاج والفرح والسرور"، بعد أن تبدّلت الأوضاع تبدّلاً جذريًّا في الطبيعة، والحيوان والإنسان[٢]:

- فـ"البريّة والقفر والبادية" ستتحوّل إلى "جنّةٍ" تضجّ بالحياة، و"السراب إلى غدير"، و"المعطشة" إلى "ينابيع مياه"؛
- و"الأيّل يطفر"، و"الأسد والوحش المفترس" لا يكونان في "الطريق المقدس"؛
- و"تتقوّى الأيدي المسترخية"، و"تتشدّد الركب الواهنة"؛ "الأعمى يبصر، والأصمّ يسمع، والأعرج يطفر".

هناك إذًا تحوّل كبير وحاسم، ونقلة نوعية وجذرية، من الفصل ٣٤

(١) رج أيضًا تك ٢٧:٤١؛ ١ صم ١٤:٤٧؛ ٢ صم ٨:١٣–١٥. لقد تصرّف سكان أدوم بشكل أغاظ بني إسرائيل جدًّا، إذ كان قد سرّهم أن يشاهدوا هؤلاء يُساقون إلى المنفى، ممّا دفع بالأنبياء إلى تهديدهم بأشدّ عقاب (رج عو ١ي؛ إر ٤٩:٧–٢٢؛ حز ٢٥:١٢–١٤؛ ٣٥:٢–١٥؛ ملا ١:٢–٣؛ أنظر مز ١٣٧:٧).

(٢) F. MONTAGNINI, "La joie du salut qui vient (Is 35)", *Assemblées du Seigneur*, 7 (1969) 6-11.

إلى الفصل ٣٥، ونتبيّن بالتالي وجود ارتباط بين الفصلين اللذين يشكّلان معًا ما درجت العادة على تسميته بـ"الرؤيا الصغيرة"، بالمقارنة مع "الرؤيا الكبيرة" (٢٤-٢٧). نحن أمام عبور من كلام على الكارثة إلى كلام يضجّ بالخلاص، حيث يتحوّل الحزن إلى فرح، واليأس إلى رجاء، والبرّية والقفر والبادية إلى فردوس جديد.

إضافة إلى ذلك، يُعتَبَر أش ٣٥ "جسرًا"[٣] بين جزءَي أشعيا الأول والثاني، يسهّل العبور من الواحد إلى الآخر. فهناك شَبَهٌ بين لغتَي أش ٤٠-٥٥، وبين لغة أش ٣٥ حيث ترسم آ ٨-١٠ معالِمَ طريق العودة من المنفى، وتصف آ ١-٧ تفاصيلَ الطبيعة المتجدّدة. لكن، في الواقع، لا يشكل أش ٣٤ و٣٥ "جسرًا بين أش الأول وبين أش الثاني، كمجموعتين أدبيّتين مترابطتَين، بل توسيع مضمون الفصلَين ٣٢ و٣٣ في ما يخص الدينونة الآتية وسيادة السلام والصفح. أمّا هدف أش ٣٤ و٣٥ فهو وصف عالم عتيد يتمّ تحوّله بتدخل من الرب الذي "يأتي ويخلّص"، فيتطهّر إسرائيل ويُبنَى من جديد شعبًا لله طاهرًا ومقدّسًا.

٢ - المعطيات الأدبية

أش ٣٥ نصّ مميّز من حيث معطياته الأدبية التي تُبرز قريحةَ أشعيا وإبداعه[٤]، والتي نتبيّنها بالتفصيل، ولو بشكل محدود، في ما يلي:

٢/١ - ملاحظات أدبية[٥]

- يستعير وصفُ زمنِ الخلاص الذي يوهب لإسرائيل معظمَ صورِه من الفصول السابقة؛ هكذا، مثلاً، تشكّل صورةُ الأرض القَفِرَة التي تتحوّل إلى أرض خصبة وتكتسي بالزهور (٣٥: ١-٢ أ)، صدًى لـ ٢٩: ١٧ و٣٢: ١٥ (رج ٢٧: ٦)؛ بذات التوجّه ينبغي مقاربة ذكر لبنان، والكرمل، والشارون (آ ٢ ب) من ٣٣: ٩.
- في هذه النصوص، تصف الصورُ عودةَ الوضع الروحي والمادّي إلى إسرائيل أكثر منه ظواهرَ الطبيعة؛ يورد موضوعُ "الصحراء" ذاتُه التي أصبحت بستانًا، في ٤١: ١٩، مذهلاتِ الخروج الجديد. في أش ٣٥: ١-٢، بالمقابل، لا دلالة تسمح لنا بالقيام بنقل من هذا النوع، إذ يبدو أن الصورة يجب أن تُفهم بمعناها المادي قبل كل شيء.
- "تشبه لغةُ أش ٣٥ تلك الموجودةَ في الفصول ٤٠-٥٥، فتُصَوَّرُ هكذا طريقُ العودة (٣٥: ٨-١٠)، وتستعيدُ الطبيعةُ نضارتَها (٣٥: ١-٧)"[٦].
- نلاحظ في النص صورًا متضادّة إلى أقصى حد؛ إنه نشيد الفرح في أشعيا الثاني، الذي يشتمل على تنسيق أدبي شاعري رائع:

فلدينا أوّلاً صيغ رباعية متكرّرة على الوجه التالي:

البرية - القفر - البادية - السراب
المياه - الأنهار - الغدير - الينابيع
العُمْيُ - الصُّمّ - العُرْجُ - الخُرْسُ.

وهناك أيضًا صيغ ثلاثية:

لبنان - الكرمل - الشارون
الأيدي - الركب - القلوب.

وفي وقع أكبر للفرح، وبصيغة ثلاثية أيضًا، يهتمّ التجديد بمعالجة:

ضعف الجسم المشوّه
وضعف النفس البائسة
وضعف الطبيعة غير المشغولة.

٢/٢ - الأفعال الرئيسية في النص

للأفعال في هذا النص دور رائد في

(٣) O. H. STECK, Bereitete Heimkehr: *Jesaja 35 als redaktionelle Brücke zwischen dem Estern und dem Zweiten Jesaja* (SBS 121, Stuttgart, 1985) 94-96.

(٤) Voir P. AUVRAY, *Isaïe 1-39* (Gabalda, Sources bibliques: Paris, 1972); Rémi LACK, *Le symbolisme du livre d'Isaïe. Essai sur l'image littéraire comme élément de structuration* (Analecta Biblica: Roma 1973), en particulier ch. II: Premier Isaïe.

(٥) J. VERMEYLEN, *Du prophète Isaïe à l'apocalyptique* (Paris, 1978) 440-446; "Isaiah 1-39", *The New Jerome Biblical Comentary* (1990) 15: 59 B = p. 248.

(٦) Ch. R. SEITZ, "Book of Isaiah (First Isaiah)", *The Anchor Bible Dictionary*, vol. 3, H-J (Double NY 1992) 485.

إبراز فكرة النبيّ، لذا نُدرج في يلي أهمّها:

ישׂשׂום (آ ١أ)

من فعل שׂושׂ الذي يعني "فَرِحَ"[٧]؛ أمّا الصيغة الواردة في النص فهي غير متوقّعة، إذ المفروض أن تكون لغويًّا ישׂשׂו؛ حرف ם ("مِيم") العبري هو خطأ في النسخ ليس إلاّ[٨]. ويَرِدُ هذا الفعل عند أشعيا أكثر من مرّة، كما في ٥١: ٣ بصيغة المصدر، שׂשׂון، أي "فرح"، وשׂושׂ אשׂישׂ في أش ٦١: ١٠، وأحيانًا مع كلمة שׂמחה التي تعني "سرور".

ותגל (آ ١ب)

من فعل גיל الذي يعني "ابتهج". يَرِدُ هذا الفعل مرّات عدّة في أشعيا، كما גלתי في ٦٥: ١٩، وגילו في ٤٩: ١٣ (مرّتان)؛ أنظر أيضًا: ٩: ٢؛ ٦٦: ١٠؛ ٤١: ١٦؛ ٦١: ١٠؛ ٢٩: ١٩؛ ٢٥: ٩.

ותפרח (آ ١ج)

من الفعل פרח الذي يعني "أزهَرَ"، أو، كما في العربية، "فَرخَ"، ومنها "فَرْخُ" الطير[٩]. يستعمل أشعيا هذا الفعل في أماكن أخرى، مثل תפרחנה في ٦٦: ١٤ بمعنى "تزهر (عظامكم)"، وفي ٢٧: ٦ للكلام استعاريًّا على "إزهار" إسرائيل، بمعنى إعادة البناء. أمّا هنا فالفعل مستعمل مع كلمة ערבה، أي "البادية"، التي، بالرغم من طبيعتها، "تزهر" هي أيضًا.

ורנן (آ ٢ب)

من فعل רנן، أي "أطلق صرخةً عاليةً"[١٠]، كما فعل "رَنَّ" في العربية، الذي يعني أساسًا "صرخَ عاليًا"، ثمّ صار يُستَعمَل أيضًا لبعض الآلات الموسيقية (رج، مثلاً، ١ كو ١٣). في كل الأحوال، هناك في الفعل العبري كما في الفعل العربي "صوتٌ يصدح". يَرِدُ الفعل ותרן في ٣٥: ٦، حيث يجري الكلام على "لسان الأبكم (الذي) يترنّم"، وרני في ٥٤: ١، وרנו في ١٢: ٦، و٢٤: ١٤، و٤٤: ٢٣. ونصادف الفعل أيضًا مع الفعل גיל، كما في أش ٤٩: ١٣ (הרים רנה)، ومع צוח في ٤٢: ١١. ويَرِدُ الفعلُ רנן أيضًا في ٥٢: ٩ في صيغة الأمر الجمع، רננו، بمعنى "رنّمي"، فيقول: "رنّمي، يا أخربةَ أورشليم". الواضح هو أن الترنيم ليس نتيجةَ حدثٍ عاديٍّ بل لحصول أمرٍ عظيم تكون يدُ الله وراءَه، كما في ٣٥: ٢: "تبتهج ابتهاجًا مع ترنيم"، وذلك لأنّ الحياة قد أُعيدَت إليها. هذا ما يثبته ما هو وارد في ٢٦: ١٩: "ستحيا موتاك...، إستيقظوا ورنّموا، يا سكّان التراب" (أنظر أيضًا ٥٢: ٨ و٩). وعندما يكون هناك "ذبول" و"موت" (١٦: ٨)، يرتفع صوت "البكاء" (١٦: ٧ و٩)، وتنزل "الدموع" (آ ٩)، فلا يُسمَعُ بالتالي "الترنيم": "زال الفرح والابتهاج من الحقل الخصيب، فلا غناء ولا ترنيم في الكروم..." (آ ١٠)، فَتَرِنُّ أحشائي على مؤاب كالكنارة" (آ ١١).

נתן־לה (آ ٢)

كلّ ما يحصل من أمور عظيمة هو "عطية" من الله، وليس نتيجة قوةٍ بشريةٍ ما. على المؤمن أن "يسأل، فينل".

יראו (آ ٢)

موضوع "الرؤية" هو ما يكشفه الله وليس ما يشاء المرء أو ما يقع تحت نظره صدفةً. يبلغ "الرائي" هنا مستوى نبويًّا، إن جاز التعبير، يجعله "يعرف الرب"، وبالتالي "يدعو باسمه"، ويشاهد "مجده" الذي يمكن تبيّنه من خلال "مجد لبنان".

אמצו (آ ٣)

دور الفعل "شدِّدوا" هو معالجة "الركب الواهنة" التي تحول دون التمكّن من الوقوف والصمود والحركة والسير. يبقى أنّ ما يجعل "الركب واهنةً" هو حالة العدم التي

(٧) F. BROWN (ed.), *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament* (Clarendon Press: Oxford 1979) 965.

(٨) *GESENIUS' Hebrew Grammar* (University Press: Oxford, 1980) § 47n.

(٩) F. BROWN, *op. cit.*, p. 827.

(١٠) F. BROWN, *op. cit.*, p. 943.

حلّت بشعب الله في المنفى، وبالتالي لا علاج بشريًّا للأمر إلاّ بكلمة الله وبتدخّله القوي.

חזקו (آ ٣) חִזְקוּ אַל־תִּירָאוּ (آ ٤)

يدعو النبيُّ إلى "تَقْوِيَة" "الأيدي المسترخية"، ثم يربط هذا الفعلَ بآخَر، هو "لا تخافوا"، المرادف لسابقه.

יָבוֹא וְיוֹשִׁיעֲכֶם (آ ٤)

لدينا في هذه الآية فعلان حاسمان، فاعلهما هو "الله" أو "مكافأة الله"، ومضمونهما "مجيء وخلاص" في آخر المطاف: "يأتي ويخلّصنا".

יְשׁוּבוּן וּבָאוּ צִיּוֹן (آ ١٠)

يتماشى موضوع "العودة" مع ما يعنيه الفعل العبري שׁוּב ذاته، "تاب" و"رجع"، إذ لا "عودة" إلى المدينة المقدسة و"الطاهرة"، "صهيون"، من دون "التطهّر"، لأنّ "الطريق" المؤدي إلى صهيون أيضًا يكون "طاهرًا" ولا "يعبر" فيه إلاّ مَن تطهّروا. عندها يؤتَى العائدون قوّة تمكّنهم من "الوصول" إلى صهيون، حيث بيت الرب.

שִׂמְחוֹ (آ ١٠)

من الفعل שׂמח، أي "سُرَّ"، القريبِ من الفعل العربي "شَمَخَ"[١١]، كون السرور يعطي حالةً جسديَّةً ومعنويةً تؤدّي إلى وضعية الشموخ ورفْعِ الرأس عاليًا والافتخار. يستعمل أشعيا الاسم שׂמחה في ٩: ٢أ: "جعلتَ لها الفرح وافرًا"، والفعل שׂמחוּ في آ ٢ب: "فرحوا أمامك". أمّا في ١٦: ١٠ فنشهد "زوال الفرح والابتهاج". أنظر ٢٢: ١٣ حيث، بعد أن "دعا السيد ربُّ الجنود إلى البكاء والنحيب" (آ ١٢)، "إذا بالفرح والسرور" بدلاً عن ذلك، لذلك "أوحى ربُّ الجنود إلى أُذُنِ النبيّ: لن يُكَفَّرَ عنكم هذا الإثمُ حتى تموتوا" (آ ١٤). إنّ مصدر "السرور" هو أبدًا الربّ، وعندما يضحي مصدره أرضيًّا وبطريقة غير مقبولة، فإنّه يتحوّل إلى نواح، أي إلى موت.

هذه بعض العيّنات الأهمّ من الأفعال التي يزخر بها نص أش ٣٥ الرائع، والتي أدرجناها بالإيجاز تدليلاً ليس إلاّ.

٣/٢ – الصور الطبيعية في النص[١٢]

على تعارض قويّ مع أش ٣٤ هي اللوحةُ الرائعة التي يرسمها أش ٣٥، والتي أضحت في التقليد اللاحق نوعًا من البشرى المرتبطة بالزمن المسيحاني[١٣]، والمطبوعة بانسجام تامّ يشمل كل مخلوق، فتتحوّل الصحراء جنّةً عجيبةً، حيث يُلاحظ القارئ تضاعف الأفعال التي تعبّر عن "الفرح"؛ وتتعافى جماعة الضعفاء، والخائبين، والعُمي، والصم، والعرج، والبُكم، بقدرة إلهية تصنع "المذهلات"، تمامًا كما يحصل لـ"البرية والقفر والبادية". إنه وصف رمزي رائع لِما تتلقاه جماعة الأبرار العائدين من المنفى إلى صهيون.

إنّ تكاثر **النبات**، بحسب أش **٣٥**: **١-٢**، هو صورة مرئية ومحسوسة للخلاص؛ يصف النبيّ من خلالها خلاص الشعب بصور مستلّة **من العالم الطبيعي والنباتي**. فَوَضْعُ الرحيلِ هو القحط ("صحراء، وقفر، وبادية")، يحوّله اللهُ إلى عدن جديدة. "النرجس"، مثلاً، هو صورة البهاء والجمال، كما هو في نش ٢: ١؛ غالبًا ما تتماهى هذه الزهرة مع "سهل الشارون" الخصب؛ ويوازي "مجدُ لبنان" **כְּבוֹד הַלְּבָנוֹן**؛ (أنظر أش ٦٠: ١٣) أشجارَ تلك الأرض، من حيث كان يُؤخذ الخشب الثمين. وبشكل مماثل يجري الكلام على "بهاء الكرمل" (**הֲדַר הַכַּרְמֶל**) للدلالة على الشجر والنبات الذي يُغطّي تلك المنطقة.

(١١) F. BROWN, *op. cit.*, p. 970.

(١٢) AAVV., *Isaia...*, Coll. La Biblia per la famiglia, n. 7 (San Paolo: Milano 1995) 82-84.

(١٣) J. COPPENS, *Le messianisme et sa relève prophétique* (Duculot 1974); R. LAPOINTE, "La métaphore messianique", *ScE*, XXIX (1977) 179-193.

ويتواصل وصف الخلاص من خلال **صور مُستعارة من الطبيعة**. فالعيون التي كانت في السابق تَرى، والآذان التي كانت تسمع، واللسان الذي كان يُعلن بفرح مذهلات الرب المخلّص، تتوازى الآن مع الأرض الجافة؛ لكنّ الجسد المريض يتعافى، مثل هذه الأخيرة التي تشهد فيض المياه المتدفقة من الصحراء، كما حصل للعبرانيين في مسيرتهم في صحراء سيناء.

في وسط هذا المشهد الفردوسي ينفتح "طريق مقدّس" (דֶּרֶךְ הַקֹּדֶשׁ)، سهل ومستقيم، يشبه الطرق التي كانت تُرسَمُ أمام المعابد القديمة للطواف الطقسي. عليه لا يمكن أن يسير "الخطأة"، وهم رموز الشر، ولا "الوحوش المفترسة"، وهي رموز العنف، بل "المخلَّصون" فقط، وهم "الذين فداهم الرب".

أيضًا هذه التعابير تُحيل إلى التحرير الذي حقّقه الربّ من خلال إخراج العبرانيين من مصر، وهو التحرير الذي سيتجدد في هذا الخروج الثاني، أي عودة العبرانيين من المنفى البابلي. في الواقع، يعود هذا المقطع من أشعيا إلى قرنَين بعد النبي أشعيا، ويعكس موضوعاتٍ وصورًا نجدها في أشعيا الثاني، وهو منشدٌ مجهول الهويّة لعودة إسرائيل من المنفى إلى أرض الآباء (القرن السادس قبل الميلاد)، وكأننا أمام خروج جديد: "يعود إلى هناك الذين يفتديهم (גְּאוּלִים) الرب، ويدخلون إلى صهيون بهتاف الفرح" (٣٥: ١٠).

يُختَتَم هكذا الجزء الشعريّ الذي يُشكّل القسم الأول الكبير من كتاب أشعيا، وتُفتَتَح أمامنا الآن مجموعة صغيرة من الفصول التي تتضمن أخبارًا وقصصًا تستعيد أحداث عصر أشعيا الوارد ذكرها في ٢ مل ١٨–٢٠. إنها نوع من الملحق التاريخي لكلمات النبيّ.

٣ – تفسير النص

تُوحي الآيات ١–٤ بأن اليهودية كانت مزدهرة في أيام حزقيا الملك، ولكنها استحالت إلى ما يشبه الصحراء بسبب ما اقترف فيها من شرور من جهة، وبسبب الأعداء من جهة ثانية. مع هذا هناك تطمين لأن "الرب سيأتي ويخلّص"، "منتقمًا" من قوى الظلمة، ومعطيًا العزاء للحزانى في صهيون.

آ ١–٢: "ستفرح البرية..." (תָּשֵׂשׂ מִדְבָּר...)

"البرية" (מִדְבָּר) هي نظريًّا وطبيعيًّا موضع غير قابل للسكن (إر ٢: ٦)، غارقٌ في الظلام (٢: ٦، ٣١)، أرض العطش (هو ١٣: ٥) والرعب (أش ١٣: ٢؛ ٣٠: ٦)، لا نبات فيها (تث ٣٢: ١٠)؛ لكنها بالمقابل موضع الخبرة الفريدة بعد الخروج من أرض العبودية، حيث عاش بنو إسرائيل فترة تَحَرُّرٍ من الماضي الذي كان بعضهم قد تأقلموا معه، قبل تلقّي الشريعة (خر ١٩) والعهد من الله (٢٤: ٣–٨)، وقبل مواصلة مسيرة الرحيل باتجاه أرض الميعاد لدخول راحة الرب. هكذا تصبح البرّية، ليس فقط مكان الخطر والجوع والعطش، بل مكان لقاء لا مثيل له بين الرب وشعبه، سار فيه إسرائيل وراء الرب في أرض لا زرع فيها (رج إر ٢: ٢–٣)، يقوده بعامود من دخان ليلاً وبآخَر من غمام نهارًا.

هكذا يشبه عابرو الصحراء بين بابل وأرض الميعاد في أش ٣٥، أجدادَهم الذين كانوا، قبلهم بمئات السنين، قد عبروا صحراء سيناء باتجاه الأرض عينها. وتعبيرًا عن عظمة هذا الحدث وأهميته، استعار كاتب أش ٣٥ أجمل وأبهى ما يمكن من الصور الطبيعية ليبرز مدى التحوّل في الأوضاع، فخلع "مجدُ لبنان" بهاءَه على البرية؛ وكما تكسو أشجار الأرز جبال لبنان العالية وتنشر أريجها في كل اتجاه، وتزينه بروعة بهائها، هكذا تغدو البرية شبيهةً بلبنان وبأرزه. ويمكننا قول الشيء عينه عن "بهاء جبل الكرمل وسهل الشارون" اللذين يقعان في فلسطين، واللذين يرمزان، مع لبنان، إلى شمولية هذا البهاء، وكأن الدنيا برمّتها قد نعمت بما تنعم به من خصب وجمال وروعة[١٤].

(١٤) هذا ما يُقال بكل التعابير في أش ٣٥: ٢ب : تُعطى البادية "مجد لبنان، وبهاء الكرمل والشارون". بكلام آخر، يكسو البادية نبات مشابه للنبات الذي يُعطيها كل بهائها فوق جبل لبنان الشهير بغابات أرزه، وبقمم الكرمل الخضراء، التي تقع على الحدود الشمالية الغربية لسهل أسدرالون، وللشارون سهل فلسطين الجنوبية الساحلي.

"الإزهـار" (וְתִפְרַח) هـو تفتّـح المزروعات على أنواعها، وليس فقط الإزهار حصرًا؛ إنه التعبير الطبيعيّ الأجمل بالأشكال والألوان عن الوضع الجديد الذي يشبه الوضع الذي كان في البدء. إن جمال الأشجار والأزهار هـو انعكـاس لـمجد الرب وبهائه، وبالتالي هو علّة "فرح وابتهاج".

إضافة إلى هذه المعطيات الطبيعية الفائقة الجمال، كون مصدرها إلهيًّا، هناك **بُعْدٌ ليتورجيٌّ** هامّ يتجلّى من خلال المسيرة في البرية والقفر، نتبيّنه من مـفـردات "الـفـرح" و"الابـتـهـاج"، و"السرور" المستعملة في النص (آ ١ي)، والتي تخلق جوًّا مزموريًّا ومسيحانيًّا ساميًا، جوّ شكران للرب المحرِّر. إننا أمام **طواف ليتورجي** يتقدّمه الرب، فلا تعثر أرجل شعبه بحجر، لأن "المعوجّ يصبح قويمًا، والصعب سهلاً".

نحن إذًا أمام **خروج جديد** حققته يد الرب القديرة كما في الخروج الأول: "إلبسي العزة، يا ذراع الرب... ألستِ أنت التي جفّفتِ البحر، مياه الغمر العظيم، فجعلتِ أعماق البحر طريقًا يعبر فيه المفتدون؟" (أش ٥١: ١٠-١١).

آ ٣-٦: "تقوّوا لا تخافوا..." (חִזְקוּ אַל-תִּירָאוּ...)

يـحـتـاج الـرجـال الـمـعـدومـي المعنويات إلى كلمة تشجيع، إلى نوع من التشديد، من أجل تبديل المخاوف، ورؤية الرب الذي يأتي (حز ٢:٣٣). قال الرب: "أنا لا أصعد في ما بينكم"، أما أشعيا الثاني فإنه يعد بذهاب الرب شخصيًا: "لذلك يعرف شعبي اسمي في ذلك اليوم لأني أنا المتكلم، هاءنذا حاضر" (أش ٦:٥٢). يرد ذكر "الانتقام" (נָקָם) هنا في آ ٤، كما قبلاً في ٣٤: ٨.

لقـد شكلـت "العيـون والآذان" (עֵינַיִם וְאָזְנַיִם) موضوعًا ثابتًا في أش ٢٨-٣٣، وكذلك هو الأمر في ٤٠-٥٥. يُضـاف إلـى ذلـك أن "الأعرج" (פִּסֵּחַ) لا يمشـي فقـط، بـل "يطفـر" (יְדַלֵּג)، و"الأخرس" (חֵרֵשׁ) لا يتكلم، بل "يترنّم" (וְתָרֹן).

يصف ٣٤: ٣-٤أ فريق المستفيدين من التدخّل الإلهي، وذلك بمساعدة مجموعة من التعابير التي نجدها من جديد في مقاطع أخرى حيث تتبيّن اهتمامات جماعة "الأبرار":

- "الأيـدي المسـتـرخيـة" (יָדַיִם רָפוֹת، يَدَيِمْ رَفُوتْ، آ ٣أ): رج زك ٨: ٩، ١٣ (على علاقة مع عبارة "بقيّة هذا الشعب"، שארית העם הזה، شَعَرِيْتْ هَعَمْ هَزِّهْ، آ ١١، ١٢)، وأيوب ٤: ٣ (باتصال مع الالتزام والبراءة، آ ٦-٧). نلاحظ هنا أنّ الصفة العبرية רָפוֹת، "المسترخيـة"، هي بصيغـة الجمع مع أنّ الاسم العبري الذي تصفه هـو فـي صيغـة المثنّـى، יָדַיִם، كما في مز ١٨: ٢٨[١٥].
- "الركـب الواهنـة" (וּבִרְכַּיִם כֹּשְׁלוֹת، بِرْكَيِمْ كُشْلُوتْ، آ ٣ب): رج مز ١٠٩: ٢٤، حيث يصف الإنسانُ "الفقيرُ والمعدمُ" (آ ٢٢) وضعَه البائسَ، ويدعو السماء لأنْ تثأر له من مضطهديه. هناك تعبير مماثل (בִּרְכַּיִם כרעות، بِرْكَيِمْ كُورْعُوتْ) نـجده في أي ٤: ٤، بـارتبـاط مع موضوع "الأيدي المسترخية".
- "فَزِعُو القلوب" (נמהרי־לב، نِمْهَرَيْ لِبْ، آ ٤أ). تبدو هذه العبارة وكأنها تستعيد عبـارة לבב נמהרים، "لِبَبْ نِـمْـهَـرِيـمْ" (أش ٣٢: ٤، بـذات المعنى). مع هذا، من الصعب نسبة المقطعَين إلى ذات المؤلف: في أش ٣٢: ٣-٤، "القلوب الخفيفة" تُذكَر إلـى جـانب ذوي "الأعـيـن والآذان المسدودة"، وتُشير إلى اليهود الأشرار الذين يُتَوَقَع توبتُهم (رج ٢٩: ٢٤)؛ في مقطعنـا، على العكس، "القلوب الـفَـزِعـة"، هـي الـمـؤمـنـون الـذين يتراخون تحت ضربات أعدائهم، والذين يُخلصهم الله. مرّة جديدة، نستنتج أننا أمام إعادة قراءة مقطع يعود إلى ما بعد المنفى، ومصدره وسط اليهود المهتمّين بالأمانة التامّة للشريعة.

تجد لغة ٣٥: ٤ب ما يوازيَها في ٥٩: ١٥ب-٥٩.

انطلاقًا من الاستعارات الواردة في آ ١-٢، ندرك عمقَ فرحِ العائدين من

(١٥) P. JOÜON, *Grammaire de l'hébreu biblique* (Institut Biblique Pontifical: Rome 1923; éd. corrigée en 1982) 456, n. 148a.

المنفى إلى ديارهم، الذين تُوجَّهُ إليهم الدعوة ليتقوّوا ويتشدّدوا[١٦] (آ ٣؛ رج ١٣: ٧؛ أي ٤: ٣-٤)، بعد انتهاء مرحلة الضعف والخروج من حالة اليأس. هذا ما تقوله آ ٤ صراحةً وبوضوح أكبر: "تقوّوا، لا تخافوا، لأن الرب آت يكافيء ويخلّص"[١٧]!

أمّا آ ٥-٦ فإنهما تجعلان القارىء يمتلىء فرحًا إذ تُنبئان بأن "عيون العمي تتفقح، وآذان الصمّ تتفتح، ويطفر الأعرج كالأيّل، ويترنّم لسان الأبكم"، تمامًا كما نقرأ في متّى ١١: ٥: "العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون" (رج لو ٧: ٢٢)، والسبب في ذلك هو أن خلاص الله قد حضر، وتجلّي الله "المخلّصُ" طبيبًا "يشفي".

"عندئذ تتفقح عيون العمي، وآذان الصمّ تتفتّح.
حينئذٍ يطفر الأعرج كالأيّل، ويترنّم لسان الأبكم" (٣٥: ٥-٦).

يقدّم أشعيا هذه المشاهدَ المُفرحة، ليبشّر بالسعادة التي تحصل في الأزمنة المسيحانية.

يستعيد شفاءُ العمي، والصمّ، والعرج، والبكم (٣٥: ٥-٦أ) الموضوعَ الذي تمّت معالجتُه في أش ٢٩: ١٨؛ ٣٠: ٢١ و٣٢: ٣-٤؛ مع هذا لم تعُد الصورة مرتبطة، كما في هذه النصوص، بتوبة اليهود غير الأمناء، الذين يُوجّهون بعد الآن لحاظهم إلى الله، بل تصف بالأحرى شفاءً جسديًا عجائبيًا. يبدو أن موضوع الأعرج (פסח، بِّسِّيَحْ، آ ٦) يشير إلى ٣٣: ٢٣، الذي يفسّره بذات المعنى الموضوعي. نُلاحظ إعادة استعمال أداة ظرف الزمان אז ("أَزْ")، أي "عندما"، التي تفتتح الجملتين. كنّا قد وصلنا إلى ذات الخلاصة في ما يتعلق بموضوع الصحراء المخصبة: إن الصور التي، في المقاطع الأقدم، كانت تورد الأمل بتوبة الأشرار، تُستَعمَل هنا لوصف تحولات العالم العجائبيّة، كما سيفعل الله يوم دينونة غير الأمناء.

وتكتمل الصورة وتتوضّح أكثر بالكلام على "تفجّر المياه في البرية، وعلى جري الأنهار في الصحراء" (أش ٣٥: ٦)، وكأني بالنبي يكمل ما كان بدأ به قطعته الأدبية الرائعة في آ ١ي: "ستفرح البرّية..."، مبيّنًا سبب "الفرح والابتهاج والسرور" الذي تنعم به "البرية والقفر والبادية": إنها "المياه" (آ ٦) علّةُ الحياة.

آ ٧-١٠[١٨]: تفجر المياه في الصحراء

إنّ ٣٥: ٦ب-٧ هو تكرار لِما ورد في ٤١: ١٨: "أفتح الأنهار على الروابي، والعيون في وسط الأودية. أجعل البرية غدران مياه، والأرض القاحلة مخارج مياه".

مع هذا، يمكننا أيضًا مقاربة هذا المقطع من أش ٣٣: ٢٥: "ويكون على كل جبل شامخ وكل أكمة عالية سواقٍ وجداولُ مياهٍ يومَ القتل العظيم حين تسقط الأبراج". إلى الطبقات الأدبية الأحدث من الكتاب، والتي مصدرها الجماعة المقدسة في أورشليم، ينتمي هذا النصُّ الذي يتكلم بشكل ملموس على مجاري المياه التي تجري على الروابي يوم المذبحة الكبرى، حيث نجد من جديد عدّة موضوعات يحفل بها أشعيا ٣٤: ١-٣٥: ٧.

من الطبيعي ألاّ تكون في البرية والقفر ينابيع مياه أو أنهار (آ ٦ و٧)، لكن الرب لم يدع شعبه يموت عطشًا في الصحراء بعد أن أخرجه من مصر، بل أخرج له الماء على يد موسى عبده من الصخر (خر ١٧: ١٦) الذي لا يخزّن الماء، جاعلاً المستحيل ممكنًا، لأنّه "ليس عند الله أمرٌ عسير" (لو ١: ٣٧). عندها صار بإمكان الحيوانات الأليفة والداجنة، كالبقر (٦٠: ١٠) والغنم (إر ٥٠: ٦)، مثلاً، أن تعيش هناك بدلاً من الحيوانات البرّية كـ"بنات آوى" (آ ٧) وغيرها.

---

(١٦) تفترض السبعينية أن الأمر موجّه إلى الأيدي بالذات: χειρες, ισχυσατε.

(١٧) S. LYONNET, "Le récit de l'annonciation et la maternité divine de la Sainte Vierge", *L'Ami du Clergé,* (1956) 33-48.

(١٨) حول أش ٣٥: ٦-١٠، والطوبوغرافيا، رج:
E. W. BULLINGER, *Figures of Speech Used in the Bible, Explained and Illustrated* (Baker Book House, Grand Rapids: Michigan 1993) 453.

ويكمل النبي تمثيل الحالة الجديدة أو المتجدّدة، فيصف "اخضرار القصب والبرديّ" في آ ٧.

في آ ٨ يضيف النص العبري الجملة التالية: "هو يجتاز المسير لأجلهم"، وكأنّ الله يسير أمامهم ليكشف لهم الطريق، الذي يصفه النبيّ بأنه "طريق مقدّس"، فلا يمكن بالتالي أن يسير الدنس وغير المؤمن عليه، أكان إسرائيليًّا أم غريبًا. نعم، إنه "مسلك وطريق يُقال له الطريق المقدس" (آ ٨؛ رج ٤٠: ٣؛ ٦٠: ١٠-١٢)، وبالتالي لا "يعبر فيه نجسٌ"، و"لا يضلّ فيه حتى الجهّال" (آ ٨)، ولا خطر فيه بل أمنٌ وأمان، إذ "لا يكون هناك أسدٌ، ولا يصعد إليه وحشٌ مفترس" (آ ٩). تلفتنا هنا الصيغة العبرية חַיַּת־רָעָה، التي تعني حرفيًّا "حيوان متوحّش"، حيث تبدو الصفة غير مصرّفة وفق الاسم الذي تصف[١٩].

نهايةَ الأمرِ، إنه طريقٌ "يسير فيه المخلّصون" (آ ٩). في أش ١١: ١-٩، التحوّل مختلف وأكثر جذرية منه في ٣٥: ٩.

يلفت انتباهنا هنا ما يُنبَذ، أي الدَّنِسُون، وغير المؤمنين، والحيوانات المفترسة، والحسرة والتأوّه. بالنتيجة، يتحوّل المسار حجَّ عيدٍ كبيرًا.

وينهي النبيّ نشيده في آ ١٠ بالكلام على الذين "فداهم الرب، الذين يرجعون ويأتون إلى صهيون"، بعد أن "عادوا"[٢٠] (رج زك ١: ٣؛ إر ١٥: ١٩؛ ٣١: ١٨)، أي "تابوا" إلى الرب، وبعد أن تطهّروا بالعقاب الذي حلّ بهم، وبعد أن "افتداهم الربّ" (أش ٣٥: ١٠)، كافتداء الأخ لأخيه عندما يفكّه من الأسر أو يحرّره من العبودية. وكما في البداية، يُختَتم النشيد بـ"الترنيم، والفرح، والسرور"، لأنّ الله المخلّص هو هنا حاضرٌ بكل خيراته التي يهبها بفيضٍ كما المياه الغزيرة.

أمّا عبارة "على رؤوسهم" فتعني "عليهم"، أو "هم بالذات"[٢١]. هكذا يُقال: "الدم" على رأس امرىء ما، أي: حيث "الدم" يوضع بدلاً عن جرم سفك الدم، و"الرأس" بدلاً عن الشخص بالذات.

٤- الروابط بين أش ٣٥ وباقي السفر

بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من تكرار مفردات، وعبارات، وموضوعات وردت في أماكن أخرى من السفر قبل الفصل ٣٥، نودّ أن نورد أيضًا ما يلي:

- يتطابق الوعد بالخلاص، الذي يصف إزهارَ الصحراء الجنوبية حيث تقوم أدوم، مع النهاية المأخوذة من أش ٥١: ١١ حيث نقرأ:

"والذين فداهم الربّ سيرجعون ويأتون إلى صهيون بترنيم، ويكون على رؤوسهم فرح أبديّ، ويتبعهم السرور والفرح، وتنهزم عنهم الحسرة والتأوّه".

- كذلك في ٦١: ٧، الموضوع هو "السرور الأبديّ": "...وفرح أبديٌّ يكون لكم".
- وفي ٣٠: ٢٩ يجري الكلام على "سرور القلب"، الناتج عن "مجيء اسم الربّ".
- أمّا في ٦٦: ٥، فـ"السرور" لخاصّة الربّ هو مقابل "خزي الذين أبغضوهم".
- ونقرأ في ٤١: ١٧-١٩ ما خطّته يمين النبيّ، وما يوضح جانبًا من ٣٥: ١ب:

"أنا الربّ أستجيب لهم، أنا إله إسرائيل لا أخذلهم. أفتح الأنهار على الروابي، والعيون في وسط الأودية. أجعل البرية غدرانَ مياه، والأرضَ القاحلة مخارج مياه. أجعل في البرية الأرز...، وأجعل في الصحراء السرو والسنديان والشربين جميعًا".

- وكما في ٣٥: ٢ج، كذلك في ٦٠:

(١٩) P. JOÜON, *op. cit.*, p. 456, n. 141d.

(٢٠) Voir " μετανοεω ", *Theologisches Wörterbuch zum Neuen Testament*, IV (Stuttgart, 1993 - 1973) 24ss.

(٢١) حول عبارة "على رؤوسهم"، في أش ٣٥: ١٠، رج E. W. BULLINGER, *op. cit.*, p. 645.

١٣ نقرأ:

"مجد لبنان يأتي إليكِ، السرو والسنديان والشربين جميعًا لزينة مقدسي..."

- وفي ٤٠: ٢٩-٣١ ما يتكامل مع ٣٥: ٣أ:

"يؤتي التَّعِبَ قوّةً، ولفاقد القدرة يُكثر الحَوْلَ. الفتيان يتعبون ويعيون، والمختارون يعثرون عثارًا، أمّا الراجون للرب فيتجدّدون قوةً...".

- وفي ٤٠: ١٠: "هوذا السيد الرب يأتي بقوة، وذراعه متسلطة..."، كما في ٣٥: ٤ب: "هوذا إلهكم...".

- كما في ٣٥ :٦ج: "انفجرت المياه في البرية، والأنهار في البادية"، كذلك في ٤١: ١٨: "أفتح الأنهار على الروابي، والعيون في وسط الأودية. أجعل البرية غدران مياه، والأرض القاحلة مخارج مياه"؛ وفي ٤٣: ٢٠: "أجعل مياهًا في البرية، وأنهارًا في القفر لأسقي شعبي المختار". أمّا في ٤٨: ٢١، فإننا أمام لوحة من تاريخ الله مع شعبه: "ولم يعطشوا حين سيّرهم في القفار، بل فجّر لهم المياه من الصخر، شقّ الصخر ففاضت المياه".

- في ٤٠: ٣-٥: "أعدّوا طريق الربّ، واجعلوا سبل إلهنا في الصحراء قويمة..."؛ وفي ٤٣: ١٩: "أجعل في البرية طريقًا، وفي القفر أنهارًا"، كما في ٣٥: ٨: "ويكون هناك مسلك وطريق يقال له الطريق المقدس لا يعبر فيه نجس..."

- في ٥١: ١١ نقرأ: "والذين فداهم الربّ سيرجعون ويأتون إلى صهيون بترنيم، ويكون على رؤوسهم فرح أبديّ، ويتبعهم السرور والفرح، وتنهزم عنهم الحسرة والتأوّه"، كما في ٣٥: ١٠.

ونودّ هنا أن نشير إلى أي ٤: ٣-٤ حيث نقرأ: "إنّك قد قوّمتَ كثيرين، وشدّدتَ أيديًا مسترخية، ونعشت أقوالك العاثرين، وثبّتَّ الركب المرتعشة"، كما في أش ٣٥: ٣.

٥ - أش ٣٥ والعهد الجديد

هناك صدى لنص أش ٣٥ في العهد الجديد، نتبيّنه، مثلاً، في:

- متّى ١١: ٥: "العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون..."، التي تشكل صدًى لما في أش ٣٥: ٥: "حينئذ تتفقح عيون العمي، وأذان الصم تتفتح..."

- أع ٣: ٧-٨: "وأمسكه بيده اليمنى وأنهضه؛ ففي الحال تشددت ساقاه ورجلاه، فوثب وقام وطفق يمشي، ودخل معهما إلى الهيكل، وهو يمشي ويثب ويسبّح الله"، التي لها ما يوازيها في أش ٣٥: ٦: "وحينئذ يطفر الأعرج كالأيّل..."

خاتمة

إننا أمام عملية تبدّل جذريّ في المواقف والأوضاع، وكله من خير الله، بحسب أشعيا!

هناك تيار من الفرح يعبر، فيروي الظامىء، ويحيي كل فاقد الحياة!

سبب الفرح هو مجد الرب ومكافأته وخلاصه، كما يقول أش ٦٢: ١٠-١٢.

يستعذب الشاعر الكلام على الصحراء والاستفادة من مخزونها التاريخي، كما أيضًا من رمزيتها الغنية والمتنوعة.

لقد تمّت عملية التخليص والفداء، ولكن العائدين (من النفي) ما زالوا في طريقهم نحو صهيون.

الرجاء أكيد، وحضور الرب هو ملموس، إلى حد أن الصحراء تتجلى لهم وكأنها الأرض الموعودة، والفردوس الذي كان مفقودًا ووجد.

إنّ مجد الرب غير ملاصق لأورشليم ولا ملتصق بها؛ فهو قادر أن يذهب إلى المنفى (حز ١)، وأن يتجلى في الصحراء؛ هناك يمكنه أن ينير الشعب: "تأمّلوا فيه فتستنيروا"، يقول المزمور ٣٤ (٣٣): ٦، فيسير بلا عثار ولا ضلال.

وتبقى الصحراء، آخر الأمر، ومهما تحوّلت، الطريقَ "المؤدّيَ إلى صهيون". وإذا كان الشعب يجد في الصحراء الفرح والسرور والماء والزهور، فليس هذا سوى قبس عمّا سيجده من فرح تام، بدأ مع مسيرة العودة، وسيبلغ ذروته عند "عبور" ذاك طريق، والبلوغ إلى صهيون، و"المُعطي" هو أبدًا الرب.

المراجـــع:

أسورمندي ماريا يسوع، **أشعيا ١-٣٩** (دراسات في الكتاب المقدس، رقم ١٩؛ دار المشرق، بيروت ١٩٩٠).

حلو شارل، "مجد لبنان (أش ٣٥)"، **مجلة بيبليا** ٨ (٢٠٠٠) ٧.

عدة مؤلّفين، **أشعيا السياسي الرائي ونبيّ الساعة، جريدة بيبليا** ٧ (١٩٩١).

عدد من الأخصّائيين، **أشعيا النبي**، تعريب جرجس القس موسى (سلسلة "ملفّات الكتاب المقدس"، ٢٢؛ مركز الدراسات الكتابية، الموصل، العراق، ٢٠٠٥).

فغالي (الـ) بولس، **إسمعي أيتها السماوات، أشعيا ١-٤٩** (القراءة الربية، رقم ١٦؛ لبنان، ٢٠٠٤).

AAVV., *Isaïa...,* Coll. La Bibbia per la famiglia, n. 7 (San Paolo: Milano 1995).

AUVRAY P., *Isaïe 1-39* (Gabalda, Sources bibliques: Paris, 1972).

BARTHELEMY D., *Critique textuelle de l'Ancien Testament. 2 Isaïe, Jérémie, Lamentations* (OBO, 50: 2; Fribourg, 1986).

BROWN F. (ed.), *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament* (Clarendon Press: Oxford 1979).

BULLINGER E. W., *Figures of Speech Used in the Bible, Explained and Illustrated* (Baker Book House, Grand Rapids: Michigan 1993).

Collegeville (The) Pastoral Dictionary of Biblical Theology, edited by C. Stuhlmueller (The Liturgical Press: Minnesota 1996).

COPPENS J., *Le messianisme et sa relève prophétique* (Duculot 1974).

GESENIUS' Hebrew Grammar (University Press: Oxford, 1980).

JOÜON P., *Grammaire de l'hébreu biblique* (Institut Biblique Pontifical: Rome 1923; éd. corrigée en 1982).

LACK R., *Le symbolisme du livre d'Isaïe. Essai sur l'image littéraire comme élément de structuration* (Analecta Biblica: Roma 1973).

LAPOINTE R., "La métaphore messianique", *ScE*, XXIX (1977) 179-193.

LIPINSKI É., "Étude sur des textes 'messianiques' de l'AT", *Semitica*, XX (1970) 41-57.

LYONNET S., "Le récit de l'annociation et la maternité divine de la Sainte Vierge", *L'Ami du Clergé*, (1956) 33-48.

MAILLAND A., *La petite apocalypse d'Isaïe, Études sur les ch. 34 et 35 du livre d'Isaïe* (dissertation, Lyon, 1955).

MATTIOLI A., *Dio e l'uomo nella Bibbia d'Israele. Teologia dell'Antico Testamento* (Marietti 1981).

MONTAGNINI F., "La joie du salut qui vient (Is 35)", *Assemblées du Seigneur*, 7 (1969) 6-11.

SEITZ Ch. R., "Book of Isaiah (First Isaiah)", *The Anchor Bible Dictionary*, vol. 3, H-J (Double NY 1992).

STECK O. H., Bereitete Heimkehr: *Jesaja 35 als redaktionelle Brücke zwischen dem Ersten und dem Zweiten Jesaja* (SBS 121, Stuttgart, 1985).

Theologisches Wörterbuch zum Neuen Testament, IV (Stuttgart, 1933-1973).

VERMEYLEN J., *The Book of Isaiah* (Leuven University Press, 1989).